نازك الملائكة وإشكالية المرأة في العراق

بهراء متابعات

عندما يُذكر اسم نازك الملائكة ١٩٢٢ ـ ٢٠٠٧ سرعان ما يتقدم وصف "الشاعرة" على غيره من الأوصاف الأخرى التي أطلقت عليها منذ نهاية أربعينيات القرن الماضي. إلا أن مشروعها الإبداعي يحمل في مطاويه اشتغالات في حقول إبداعية أخرى؛ فهناك القول القصصي ـ السردي، والقول النقدي ـ الجمالي، والقول النقدي ـ الفكري، فضلا عن القول الشعري.

بدأت نازك الملائكة حياتها الإبداعية شاعرة لتكتب القصيدة العمودية "مأساة الحياة ١٩٤٥"، و "عاشقة الليل ١٩٤٧"، لكنها سرعان ما شرعت بكتابة (قصيدة الشعر الحر) كما تسميها في ديوانها "شظايا ورماد ١٩٤٩" الذي ضم قصائد من هذا النوع منها "مر القطار" و "الأفعوان" و "لنكن أصدقاء"، وغيرها من القصائد. بعيدا عن معمارية القول الشعري كانت الملائكة وعلى الصعيد المضموني قريبة من القول الشعري ـ الفلسفي في مرحلة بدت فيها الإنسانية من حولها تعاني ويلات الحرب العالمية الثانية التي أدت من بين ما أدت على الصعيد الفكري إلى صعود نجم الفلسفة الوجودية في أوروبا بكل ما في خطاب هذه الفلسفة من نزعة تشاؤمية صارخة، الأمر الذي انعكس على بنية الإبداع الشعري والفكري لدى عدد غير قليل من المفكرين والأدباء والشعراء في العالم، ومنهم نازك الملائكة التي تحدثت عن تجربتها في كتابة مطولتها الشعرية "مأساة الحياة"، وتأثرها الرومانسي بالأفكار التشاؤمية للفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور ١٧٨٨ ـ ١٨٦٠ قائلة "يدل عنوان قصيدتي مأساة الحياة على تشاؤمي المطلق وشعوري بأن الحياة كلها ألم وإبهام وتعقيد. واتخذت للقصيدة شعارا يكشف عن فلسفتي فيها هو كلمات للفيلسوف الألماني المتشائم شوبنهاور.. والواقع أن تشاؤمي قد فاق تشاؤم شوبنهاور نفسه".

تركت تجربة الملائكة التشاؤمية تلك أثرا كبيرا في قولها الشعري الذي هيمن على مشروعها الإبداعي برمته في مرحلتي أربعينيات وبداية خمسينيات القرن الماضي. ولعل قراءة تحليلية مضمونية في النصوص الشعرية لتلك المرحلة ستكون كفيلة بتقديم مسارات كثيرة التنوع والتداخل عن هيمنة ما هو فلسفي على غيره من المضامين في خطابها الإبداعي. إلا أن جملة من المتغيرات التي جرت في سنوات لاحقة خلال مرحلتي الخمسينيات والستينيات، ستؤدي إلى تبدد النزعة التشاؤمية لدى الشاعرة، ففي معرض حديثها عن إعادة كتابة قصيدتها "مأساة الحياة" عام ١٩٦٥، كشفت الملائكة عن زوال آرائها التشاؤمية و "حلول الإيمان بالله، والاطمئنان إلى الحياة"، وراح "جو مأساة الحياة يتبدد تدريجيا".

إن زوال النزعة التشاؤمية لم يؤدّ بالملائكة إلى تخليها عن تضمين المعاني والرؤى والأفكار الفلسفية في مشروعها الإبداعي، إنما سار القول الفلسفي متوازيا مع القول الشعري، بل أفردت الملائكة للقول الفكري ـ النقدي، خصوصا في جوانبه السوسيولوجية مكانا في وعيها الإبداعي، في وقت كانت متغيرات المجتمع العربي السوسيولوجية تتصاعد على نحو لافت بعد ظهور حكومات الاستقلال في أغلب الدول العربية، وتطور نظم التعليم في المجتمعات العربية، ونمو أساليب التحديث لتطال بعض طبقات المجتمع العربي وتؤثر في بنياته الرئيسة كما لو كان الأمر ثورة تحديثية تجتاح المجتمع العربي من جوانب عدة.

بعد نكسة ١٩٦٧ كانت متغيرات الواقع العربي المأسوية عنصرا جاذبا لكثير من المبدعين العرب. وكان الحال في العراق لا يختلف عن بقية دولة المنطقة العربية من حيث تداعيات تلك النكسة على المنطقة. وكانت حرية المرأة العربية واحدة من إشكاليات عدة دار الحديث حولها في تلك المرحلة كجزء من النظر وإعادة النظر في جملة ما كانت عليه أحوال المجتمع العربي من إشكاليات. في هذا السياق، دعيت الملائكة إلى إلقاء محاضرة في (جامعة البصرة)، كان ذلك في آذار ١٩٦٨ ضمن الموسم الثقافي الرابع للجامعة. وكان بإمكان نازك أن تتناول موضوعا يمت إلى حقلها الإبداعي في الشعر أو النقد أو الترجمة أو أية ظاهرة ذات صلة بالقول الشعري أو القول النقدي الأدبي والجمالي. لكنها اصطفت موضوعا آخر يمت إلى القول الفكري ـ النقدي هذه المرة، فكانت محاضرتها التي افتتحت بها جامعة البصرة موسمها الدراسي الثاني من العام ١٩٦٨، بعنوان "مآخذ اجتماعية على حياة المرأة العربية". وواضح من عنوان المحاضرة أنها تتضمن ثلاثة موضوعات هي "منهجية النقد الفكري في جانبه السوسيولوجي" وهو ما تؤكده عبارة (مآخذ اجتماعية). و "ظهورية المرأة في المجتمع" وهو ما تعبر عنه مفردة (حياة المرأة). ومن ثم موضوع "المرأة العربية باعتبارها بؤرة النظر" في خطاب المحاضرة.

لنبقى في مجال تحليل مضامين النص في مدخله الرئيس، ولنقرأ الفقرة الأولى التي جاء فيها "ليست هذه المحاضرة دراسة في فلسفة الحياة الاجتماعية، وإنما هي بحث في المدلولات الفكرية لحياة المرأة العربية، حاولت فيه أن أحلل الأزياء إلى مضمونها الروحي، وأربطه بذهن المرأة وحياتها الاجتماعية والقومية". نأت الملائكة عن أي حديث نظري مجرد عن المرأة العربية، لكنها وفي الوقت نفسه ما تعالت على البعد النظري ـ المعرفي باعتباره محصلة لما ستنظر فيه من وقائع سلوكية ومعطيات متحركة في يوميات حياة المرأة العربية.

وجود المرأة في العالم المعاش أو في الحياة اليومية هي ما تعاينه نازك الملائكة في محاضرتها. وهذا يعني أننا بإزاء تجربة نقدية نسوية مبكرة تظهر في الفكر العراقي الحديث، تجربة ربما هي الأولى من نوعها في استقراء ظهوريات الفعل النسوي في مجتمع عراقي للتو انخرط في التحديث البنيوي ـ ابتداء من ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وسار في ركب الانفتاح على أنماط جديدة من الحياة المحدثة لتجد المرأة العراقية فيها كينونتها وهي تجرب قيما تداولية مختلفة، كحرية الحركة، وحرية استخدام الملبس، واستعمال مواد التزين والتزوق في مجتمع ـ المجتمع العراقي ـ عُرف بأنه محافظ في قيمه وسلوكه وعاداته.

تنظر الملائكة في فكرة "الحرية" كما تفهمها المرأة العراقية وكما تعمل بمقتضاها في ضوء سلوكها اليومي. ففي مرحلة ستينيات القرن العشرين كان هناك قول دارج في المجتمع العراقي مفاده "أن المرأة قد تحررت، ونريد بذلك أنها أصبحت قادرة على الخروج والدراسة في الجامعة والعمل في وظائف الدولة". إلا أن هذا الفهم للحرية يكتنز ـ من منظور الملائكة ـ قصورا كبيرا، فالحرية تعني "سقوط القيود والأغلال عن الذهن الإنساني بحيث يقوى على فرض نظرة جديدة وأصيلة إلى الأشياء كلها، ويستطيع أن يغيرها وفق حاجاته الروحية". الملائكة إذن ترفض "الحرية" كسلوك بشري غير مؤسس على تجربة ذهنية داخلية وأصيلة من جهة، وقائمة على ضرورات الحاجة الروحية للإنسان من جهة أخرى، ما يعني أن المرأة العراقية تجرب على الصعيد الواقعي اليومي حرية خارجية وليست داخلية، حرية شكلية وليست تكوينية متفصلة من ذاتها، حرية مادية وليست روحية، حرية اندفعت المرأة العربية إليها وفق ثقافة ورثت نماذج نسوية إرشادية عن أمسنا العربي الإسلامي ذات سلطة رمزية. تقول الملائكة عن أحد هذه النماذج "لقد تركت الشخصيات النسوية في كتاب ألف ليلة وليلة نموذجا سيئا للمرأة العربية، ذلك هو نموذج الجارية التي لا يهمها إلا لباسها، ولا ترى في نفسها أكثر من متعة للرجل، تعيش بغرائزها، وعليها أن تكون جميلة، وأن تسلي الرجل، وتطهو له الطعام السائغ.. وهذا النموذج ما زال المتحكم في حياة المرأة العربية، لم يغيره خروجها إلى الحياة العامة قطعا، وكل ما تغير فيها أقوالها، فقد بتنا نسمعها تتحدث عن دور اجتماعي عظيم تقوم به، وخوض لمختلف مجالات العمل والبناء، وتحرر من عبودية القرون المظلمة".

لا بد هنا أن نقف عند مستوى وطبيعة وأهمية النقد الذي تكيله الملائكة إلى ما تكرسه المرأة العربية من حرية في ضوء حضور هذا الأنموذج المتسلط كموروث ضاغط عن السلف، فالمرأة في حقيقة سلوكها ما زالت "جارية" معنية بالشكل الذي يرضي الرجل ويشبع حواسه، كما أن تكريسها للحرية ما زال "صوتيا"، لأنها تفعل غير ما تقول، وتقول غير ما تفعل، وما تقوله يبدو أنه يحمل قيما متعالية بعيدة على الواقع الذي تتحرك فيه. والخلل، كما ترى الملائكة، هو خلل يرتبط بطبيعة الفهم والذهنية التي تفكر المرأة من خلالهما في الحياة وفي العالم من حولها، فلدى المرأة العربية "تجزيئية واضحة تفرق بين القول والعمل، بين النية والتطبيق، بين الفكر والحياة". المرأة العربية إذن لا تعاني من عوق جسماني، ولا من خلل بيولوجي، إنما من خلل ثقافي يرتبط بطبيعة ذهنيتها النسوية وهي تفكر في الذات وفي العالم وفي العلاقة بينهما. وهو خلل غير متجذر في ذهنية المرأة على نحو ماهوي أو خلقي بل هو خلل ثقافي طارئ عليها وعارض لها بسبب السلطة الرمزية المتأتية عن أنموذج المرأة العربية الجارية.

ربما نلتقي هنا، ولأول مرة في مسيرة الفكر النسوي العراقي بل والعربي أيضا، مع رؤية نسوية تتوسل النقد الذاتي في جوانبه السوسيولوجية، والنقد الأبيستيمولوجي في جوانبه المعرفية، والنقد الثقافي في جوانبه السلطوية، حيث تتصدى الملائكة إلى نقد الفاهمة البشرية في جنسها النسوي ما يعني لدينا ومن الناحية الزمنية أن نازك الملائكة سبقت الكثير من الكاتبات العربيات اللواتي اشتغلن ضمن رؤية نقدية جذرية أو راديكالية مثل فاطمة المرنيسي ورجاء بن سلامة وغيرهن، في نقد طبيعة الذهنية النسوية العربية، والكشف عن عوائقها المعرفية والسوسيولوجية والثقافية.

وإذا كانت "الحرية" تعد نظرة جديدة وأصيلة إلى الأشياء تفرضها حاجات الإنسان الروحية، فإن رؤية الملائكة إلى "الجمال" لا تكاد تختلف عن رؤيتها إلى مفهوم الحرية، فكلاهما شعور وإحساس داخلي. ولذلك تقول عن هذا الجمال "إنه جمال ينبع من الروح الكبيرة المستوعبة، والذهن الحر المرن، والقلب النابض الرقيق، وهو جمال الخلق الكريم والعذوبة، والخشوع لله والنزاهة، وكبر النفس". فالجمال إذن قيمة جوانية لدى الإنسان مصادرها الروح والذهن والقلب. بل هي قيمة طبيعية وتلقائية لدى الكائنات، فالجمال هو "ملك الوردة الحمراء المشتعلة بالحرارة واللون والخصوبة على غصنها اللدن، والوردة لا تتأنق، والجمال ملك للفراشة التي وهبها الله ألوانها، ولم تضع على شفتيها أحمر الشفاه، ولم تزجج حاجبيها بالقلم الأسود، والجمال ملك لفتاة ذكية العينين، بسيطة المظهر، يشع وجهها عطفا وحنانا، وكأنها تريد أن تحتضن الوجود وتغمره بمشاعرها الكريمة". لكن المرأة في سلوكها الواقعي واليومي ـ كما ترى ذلك الملائكة ـ لا تتعامل مع الجمال وفق هذه المصادر الداخلية المتوفرة لدى كل البشر، إنما تتعامل معه كما لو كانت مصادره خارجية ومعاييره متأتية من الواقع الموضوعي الذي يحدد قيمة الجمال الماهوية وماهيته القيمية الخاصة به.

في ضوء هذه الرؤية التي ترى في "الجمال" أنه داخلي وطبيعي وتلقائي، وجهت نازك الملائكة سهام نقدها الاستقرائي والجذري لجملة من المظاهر والسلوكيات والتمظهرات التي تعدها المرأة العربية تعبيرا عن الجمال إن لم تكن تعده الجمال بعينه أو في ذاته.

بدت المرأة أمام ناظري نازك الملائكة "دمية"، ولأنها كذلك، فقد جعلتها موضوعا لدراسة استقرائية، ولتضع على مشرحة التحليل النقدي ما تستخدمه المرأة – الدمية من وسائل ومظاهر وعلامات، وهي بذلك تضع نفسها، وعلى نحو مبكر وربما ريادي، في حقل التحليل السيميائي لأنها راحت تبحث عن علامات ما تعده المرأة دالا على الجمال في محاولة منها لتعطيل قيم الجمال الفطرية وتعويضها بقيم جمالية مصنعة.

بدأت الملائكة بإلقاء الضوء على مفهوم التأنق أو الأناقة، فهي تعده "جناية على عقل المرأة وروحها"، وفي ظله تقول الملائكة "يصبح الجمال الفطري عاطلا عن القيمة"، ناهيك عن آثاره الاجتماعية على الناس، ذلك أن التأنق "يقسم المجتمع إلى طبقات"، كما أنه يهدر الزمن والوقت من حياة المرأة، و "يفرض على ذهنها صنوفا شتى من العبوديات". لتقف محللة استخدام المرأة لـ "الكعب العالي" بوصف هذا الاستخدام ظاهرة سلبية، وبوصفه أيقونة تتأملها الملائكة لتدرس "صلتها بوضع المرأة الفكري العام" كما تقول، بمعنى أنها تتتبع المؤثرات الصحية والجمالية المتصنعة والنفسية والإنتاجية والأخلاقية جراء استخدام الكعب العالي من قبل المرأة. وانتهت الملائكة إلى دعوة الرجل لتحمل مسؤوليته التنويرية في توعية المرأة رغم أنها عدته "متخلفا" في خاتمة محاضرتها، لكنها كالت اللوم أكثر على الحكومات العربية التي طالبتها بإدراج المرأة ضمن مشروعاتها الإصلاحية، ووقوفها في وجه الموجات الإعلامية التي تشيع أساليب إفساد الذوق النسوي العربي من خلال تسطيحه وجعله يتشبث بالشكل دون المضمون. وطالبت المرأة العربية بضرورة أن تضع لنفسها "فلسفة جديدة ترفع شأنها، وتعطي القيمة الأولى لذهنها وروحها".

خلاصة الشعر

صباح القس/ بغداد

Sabah_ alkass@yahoo.com

فإذا ابتليتَ ببذلِ وجهكَ سائلا
فابذله للمتكرّمِ المفضالِ
واذا خشيتَ تعذّرا في بلدةٍ
فاشدُدْ يديك بعاجل الترحالِ
وأصبر على غِيَرِ الزمانِ فإنما
فَرَجُ الشدائدِ مثل حلِّ عقالِ

هذه الأبيات للشاعر اسماعيل بن القاسم بن سويد المعروف بأبي العتاهية وكنيته ابو اسحاق. نشأ بالكوفة والتحق بمجموعة المخنثين لكنه عدل عن ذلك واخذ يعمل في صناعة الجرار والفخار. وعندما استوى عنده قول الشعر وأبدعت قدرته وحافظته ترك هذه الصناعة وتفرّغ للشعر فتقدم غيره وبرع في نيل جوائز الخلفاء والأمراء.

اكثر شعره في الزهد والأمثال والحكمة لكن ذلك لا يعني انه لم يقل في المدح فهو مدّاح متقدم وحصل من هذا المديح على اموال كثيرة لكنه في واقع الحال كان بخيلا شحيحا مقترا مع يساره وحصوله على الهبات والعطايا والجوائز.

والأبيات فيها من الزهد والحكمة والأمثال ما يميز شعر ابي العتاهية.

ومعنى البيت الاول انه اذا أضطرت الظروف شخص ان يطلب معروفا او خدمة فعلية ان يطلبها من الانسان الذي يعرف انه قادر على انجاز مثل هذه الخدمة والمعروف واكثر من يستطيع ان يقوم بمثل هذه المهمة هو الرجل الكريم، ومن صفات الكريم ليس تقديم المال فقط بل تقديم كل ما يمكن لمساعدة الآخرين والمفضال صيغة مبالغة للانسان الكثير الفضل.. الانسان يحتاج اخاه الانسان وهذه مسألة طبيعية ضمن الحياة الاجتماعية، ولكن المسألة تكون صعبة اذا طلبت شيئا من انسان ليس على قدر المسؤولية وبذلك تكون قد ذللت وجهك وأسأت الى نفسك مع ملاحظة ان يكون الطلب معقولا وضمن حدود امكانية من تطلب منه وحينها عليك ان تختار المكان والزمان المناسبين لمثل هذا الطلب.

واذا أحسست انك في موطن او بلد غير قادر ان تعيش فيه او تتعايش معه فلا بأس من تغيير مكان الاقامة بشد الرحال والتوجه الى أي مكان تشعر فيه بالراحة والاستقرار فأرض الله واسعة.

الصبر هو من نعم الله على الانسان، والزمان متقلب متغير لا يسير دائما مع الانسان على ما يحب ويشتهي، فقد تحدث العثرات وقد يقاسي الانسان الصعاب والتحديات، فالعيش على هذه الارض هو مجموعة تحديات ومصاعب وعلى الانسان تجاوزها بالعقل والصبر والايمان، ومهما بلغت تلك المصاعب من الشدة فأن الله سيجد لها مخرجا من حيث لا يتوقع الانسان كيف جاء الحل. وكل شديدة ومصيبة لها حلها المناسب وربما يفاجأ الانسان بما كان يقدره من صعوبة في تلك المشكلة واذا هي بسيطة كحل العقال والعقال هو حبل يربط به البعير.

قراءة وانطباعات في "غدا تشرق الشمس"

يونادم بنيامين

هكذا نقرأ للشاعر عبد الحميد الجباري في (٢٦) قصيدة حملها بحزن عراقي وبدمعة حارة على الحزين، ولما آلت اليه الحالة وخاصة لما رآها بأم عينيه حيث الموت والدمار في بغداد الازل والجوهرة وام الدنيا والعواصم. حيث استهل مجموعته الموسومة بمطلع للجواهري الكبير (اتعلم ام انت لاتعلم) بان مصاب العراق لايفهم. وفي حصاد الريح: وكنت احلم يا ليلى بزوجة حسناء تفيض بالحنان والبهاء.

اما سلام على العراق الحزين.

"سأهدم.. هذا الجدار اللعين بين الحياة والمبدعين وافتح نافذة للربيع وازرع للعراق الجميل حقولا من الحب والياسمين ساحمل قيثارتي بين الزحام وانشد". هنا يذكرني بشاعر تشيلي البطل والموسيقار فكتور جارا وهو يغني وسط حشد من الناس وسط اكبر ملعب رياضي في تشيلي وهم يقطعون اصابعه وهو مستمر بالعزف على قيثارته المشهورة حتى ابواب الخلود الابدي هنا يستنهض الهمم ويغرز الامل وحب الوطن والناس بدلا من القنوط والانعزال. لابد ان نواجه الطغاة بصدر مليء بالحب والحبور كما قال شاعر تركيا الكبير ناظم حكمت للسجان الامي وهو في غياهب السجن مع المجرمين والقتلة الذي راح يشرح الحياة وماهيتها وفرصتها وتألقها حيث يقول الجباري الرائع "ساجعل اشعاري تدق البيوت على النائمين والغافلين بان ينهضوا ويوقفوا هذا النزيف وهذا الصراع وهذا الجنون".

ثم في قصيدة على العراق الحزين يهيب بابنائه المخلصين بلم الصفوف وسد الطريق على العابثين والطامعين فالرسالة واضحة علينا بان تكون (حزمة من العصي) كما قالها معلمنا في الابتدائية. لاعصا لوحدها لانها تكسر. اما في (مكيدة الشيطان) ها هو يلعب لعبته. جعل الوساس يوسوس في ادمغة الناس فانتشر الارهاب وصار الموت يداهمنا صبحا وعشيا.

لاتعليق على هذا النص فهي لائحة الوفاق والتألق وشد الازر والاتحاد في معناها صفاء القلوب بل القلوب البيضاء ونترك (قساة الغليضة) لامكان بعون الله في مجتمعنا العراقي الاصيل وفي معظم قصائد هذة المجموعة، الحزن والشجن وهذا واقع يعيشه ويصطدم به الشاعر اينما يذهب في شوارع وميادين بغداد الشعر والشعراء.

بغداد حبيبة وعاشقة وقصيدة لم يكتبها شاعر ولم يلحن اغنيتها القادمة الا هذا الشعب. حينها تزف البشرى ونردد مع ابو القاسم الشابي "اذا الشعب يوما اراد الحياة..." املي اني دلوت بدلوي المتواضع في بعض قصائد الشاعر واترك البقية للقاريء اللبيب لان الوقت يداهمنا ويرمينا من حيث لاادري نبحث عن الشمعة الصينية التي لاتنطفيء ابدا.

حاسة الصمت

شاكر سيفو

يولدون من رائحة التراب
وفي نهاية المطاف
يسكنون السماء..
•••••

أدعوكِ الى شجرة حواسي
وأترنح بين مطرقتي
زمانين
تلك وحشة آسي وأساي!
•••••

ماذا سأفعل بكل هذا التفاح وحواء
لا زالت تقيم في سريره؟
•••••

بإسم وردة الكلام
أعلي قدح الصمت وأدعوكم
أن تصمتوا،
وأنا سأصمت معكم الى الابد..
•••••

كل ما أملك في هذه الدنيا
غيمة كذوب
تذّر لي سنوات من التجاعيد..
•••••

ماذا افعل بكل هذا القمح
والخريف يفرهد أهراءه؟
•••••

من أجلك أيتها الباء فوق بردة الروح
تبتسم الخلائق كلها..
•••••

نخرج من مياه الأبدية بلغة الملائكة
ونجهش بسعادة النجوم..
•••••

سأقيمك على الكثير،
ولكن بعد انطفاء الشمس
في حدقتي..
•••••

بدّلتُ السخام بالجنون حينما انطفأت
مصابيح العقل،
عقل الورد في نهار العائلة..
•••••

كأنه ساحر يُخرج خضرة آبائه
من كمّ قميصه..
•••••

إنه يجمع كل ما كتم الصباح
من قراءات وردية
في ضفيرة تلميذة سرقتها
سطور الخلدونية..
•••••

في اربعاء الرماد
يغادره الصمت الى عرش الكلام
ليحرس زهرة الخلود..
•••••

خُذ من الطير عشّه

خُذ حبّة الحنطة من فمه
خُذ عائلته
ولا تقصّ جناحيه..
•••••

كان طوال حياته يُطارد أشباح
الحكمة في المصحات..
•••••

وكان –دائما– يسافر الى السموات
ويسكن القمر،
حينما تداهمه رائحة الزيت والبصل..
•••••

الأمجاد تبحث عن زهرة سطوعها
بين الأنقاض..
•••••

لا الربيع يضلع بعكاكيزه
نحن احفادك، نريد مزيدا من الكوميديا.

الفيلم الوثائقي أين العراق؟.. أين الملاذ في وطن المنفى ؟

بهرا، وكالات

في مقهى صغير على الحدود العراقية الأردنية يلتقي العراقيون بالعراق منفيا، يتحاورون، يستذكرون الماضي المدمر ونتيجة البطش الذي تعرضوا له يلومون اللحظة التي أعلنتهم عراقيين، الجناية التي صرح بها الشاعر أبو العلاء المعري "هذا جناه أبي علي". يبدأ فيلم أين العراق للمخرج باز البازي بمشهد لمواطن عراقي من الجنوب "علي" يعمل سائق شاحنة صغيرة لنقل البضائع يسب العراق أمام الكاميرا وبعدها يعرض يديه الملطختين بالدهن والسخام "مشتقات النفط" ويقول بتلقائية "أنظروا هل هذه يدين مواطن سعودي أو كويتي؟" ملمحا إلى أن العراقي قد جنى من النفط الحروب والدمار وإنتهاك لإنسانيته بخلاف ماحصل لمواطني تلك الدول من الرفاهية والأمان. عنوان الفيلم يستلهم ظرف المكان أين/ سؤال ليعبر عن وجود العراق في العدم على الأقل في هذه المرحلة التاريخية من محنة العراق والتي تشارك في ظلاميتها أطراف عدة من العراقيين أنفسهم إلى دول الجوار وإرهاب القاعدة ثم الطرف الرئيس امريكا.

وهذا السؤال المؤسس على النفي يتماهى مع مشهد النهاية (شاحنات النفط تعبر الحدود.. إلى أين تذهب هذة الثروة ؟). ويجد النفي صداه في المكان (مقهى حدودي يجمع العراقيين) كما أن المخرج باز البازي هو نفسه منفى منذ ثلاثين سنة، إستفاد العنوان من كلمة " أين" ليشحذ كل طاقاتها على السؤال فالنفط أصبح ثروة في الخراب والنقمة (نفي النعمة). ما الذي يرغم المواطن على التنكر لبلده وما هي عمق العلاقة بينه وبين الوطن؟؟. هنا من الجيد التذكير على اننا كعرب نشارك العالم في كل شيء، في التفكير، في الذود عنه وفي المشاركة بتجميله، ولإنجاح هذه المسؤولية التضامنية ينبغي التوقف عن الإدعاء بخلود الأفكار لإنها تتغير وفقا للزمان وللمكان، المطلوب مراجعة الكثير من المفاهيم والأفكار اللتين تلعبان دورا في علاقتنا بعالمنا وتؤديان إلى تعاستنا وإنعزالنا.. أو إلى قبولنا كمواطنين مساهمين فيه، عندئذ تخف حدة تصادمنا معه ونشعر بالسعادة. من الضروري الحسم الواضح لمعاني هذه المفاهيم "الوطن، الآخر، الشجاعة، الخيانة، الإحتلال.. إلخ". جرأة المواطن "علي" على السب تقودنا إلى طرح هذا السؤال: هل الوطن هو مجرد شعور بالولاء العاطفي أم هو مفهوم معرفي يخضع للعقل تناقش فيه حدود المواطنة والوطن والتي ما أن تتجاوز تتغير هذه العلاقة الى جانب التنصل او الارتباط الحميمي؟؟ فإذا كان الإنتماء للوطن ناتجا بسبب الولادة والذكريات أي عن طريق مساهمة غير واعية وغير شخصية الإختيار لأنها مكتسبة عن الأهل والبيئة كإكتساب الاسم والديانة. اذا هذا الولاء حماسي يفور بإتقاد العلاقة بين الإنسان ووطنه (سلبا او إيجابا تبعا للحماية او للخطر الصادرين عن الوطن) وهو غير أصيل لانه مكتسب جراء عوامل خارج إرادة المرء نتيجة الولادة ورغبة الوالدين وفرض محيط العيش غير المختار، اما اذا نظرنا للوطن كمفهوم يرتبط بالعقل غير ناف للعاطفة فسوف نصل إلى علاقة معرفية بإنتمائنا بعيدا عن حماس الولاء. ففي العقل هناك أيضا شحنة من العاطفة ولكنها غير متغلبة عليه. ان الخطورة تكمن في حالة صراع العقل مع العاطفة وتغلب الأخيرة عليه ويكمن سلام المرء بقدرته على جعلهما رفيقين لا عدوين. علاقة الانسان ببلده علاقة حميمية غير معقدة تشبه علاقة المرء بالمأكل، بالمشرب وبالأثاث ونفعية تكافلية. إن تضخيم هذه العلاقة بجعلها مصيرية وقياسية يضر بالطرفين. المنفعة غير شريرة بخلاف ما نتصورها فهي أساس التعامل مع روابط كثيرة، مثلا المنفعة في الحب هي تحقيق الأنا مع شريك وفي الزواج منفعة إقتصادية وفي الأديان توجد منفعة الحصول على مرضاة الخالق والفوز بالجنة حتى في الإنتحار.. هناك منفعة إشهار للذات المقموعة، الأوطان التي تجبر الفرد على الموت في سبيلها ولا تجعله يتنعم بثروتها ودفنها هذه ليست أوطانا تحترم بل صانعة للموت. بهذا المعنى نستطيع أن نتفهم شتيمة "علي" فهي ليست إساءة من جانبه بل نتيجة تنصل العراق عن حماية وسعادة مواطنيه وتعريضهم للهوان.

حاول المخرج باز الدخول للعراق عن طريق تركيا ففشل، جرب الحدود الأردنية فلم يفلح فعوضته مقهى صغيرة عن رؤية بلده. شخصيات الفيلم أضفت عليه ملامح الصدق والبساطة، براءة فتك بها نظام دموي حسب العراقي المقيم في الدانمارك (تتكرر هنا مفردة المنفى) الذي جاب بلده جنوبا وشمالا ليعثر على أقاربه المفقودين دون جدوى. عبّر الفيلم وبمشهد صريح عن مواقف بعض العرب ضد العراقيين ومؤازرتهم لنظام صدام في البطش، فهاهو ضابط مخابرات أردني يعلن وبسفالة عن مساندته للنظام العراقي ويشتم العراقيين لمعاداتهم ذلك النظام والسبب هنا انه يتبنى عاطفة الإنتماء الحماسي كمعيار تحكم علاقته بالوطن، إذ يعتبر الأردني ان صداما شجاعا لانه دافع نيابة عن العرب لذا يراه بطلا حتى وهو يقتل العراقيين. تبني مفهوم البطل على هذا النحو يجر إلى كارثة تهدد علاقة المرء بمن حوله ويجعل العالم ساحة حرب، القتال فيها بطولة شاهرا الفحولة كسلطة (تجدر الإشارة هنا على ان الرجال دون النساء يتحدثون عن الشجاعة والبطولة وكأنهما حكرا عليهما) متغاضيا عن فكرة مفادها ان كل الأفعال الخيرة من الاهتمام بالطفل وبالبيئة هي بسالة ولكن من نوع آخر غير بطولة السلاح والحرب. الوردة بجمالها تشير الى النضارة التي هي ضد الجفاف والخراب المرادفين للحرب والموت، فالوردة إذا ضد الحرب. هنا تكمن خطورة الولاء العاطفي فهو أعمى ولا يفرق بين الظالم والضحية بينما يستطيع العقل أن يوجه تصرفات المرء نحو الحب الشديد للوطن او البغض له ولكن بالحق مخالفا لما يقوم به. الولاء العاطفي ضيق المساحة والتفكير.. نحن نعيش ونتحمل مسؤولية عالم واحد وليس عالمين وهذا منطق الرئيس بوش وضابط المخابرات الأردني (عالمين) ولذا يحارب الإرهاب بعيدا عن امريكا كي لاتتحمل تبعاته مكانيا مزيدا عليه منطق الولاء الديني المسيحي المحرف والاسوأ من الإنتماء الحماسي للوطن (الطائفية هي انتاج الولاء التبجيلي لفئة معينة). سلاسة المونتاج مع الموسيقى التصويرية العراقية منحتا الفيلم (٢٢ دقيقة) إنسيابية وحبكة محكمة. وزعت الكاميرا إهتمامها على المكان والأشخاص وإقتربت بحميمية من إنفعالاتهم "رجل عجوز يحرك بعصبية الملعقة في (إستكان) الشاي". ولم ينس الفيلم أن يتعرض إلى سؤال مبطن في هذا المشهد "عندما يسمع الأذان يقوم شخص (واحد) من بين الحاضرين في المقهى ليؤدي الصلاة!!". يظل العراقيون ينظرون إلى شاحنات النفط تعبر الحدود. الوطن والمواطن والنفط.... إلى أين؟.

بانيبال.. عدد جديد

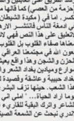

صدر العدد (٣٣) من مجلة بانيبال، مجلة ثقافية فصلية تصدرها مديرية الثقافة الاشورية في وزارة الثقافة لاقليم كردستان العراق وبثلاث لغات (السريانية- العربية- الكردية).

تضمن القسم السرياني المواضيع التالية (ملحمة قطينا.. الخبر الصحفي.. مجلة بيث نهرين.. المدارس المسيحية قبل الاسلام.. عندما يبكي الرجل.. في ذكرى شخصية.. سور نينوى.. الادب والحكمة في بيث نهرين.. حكاية من عنكاوا.. ديوان بانيبال.. من الشعر العربي المعاصر.. لقاء مع الصحفي اكد مراد واخبار ثقافية).

اما مواضيع القسم العربي فكانت (المسلة في التاريخ العراقي القديم.. احيقار الحكيم في نينوى واثره.. الزي الاشوري ودلالته.. تأملات في جدارية اشورية.. لقاء مع الدكتور يوسف خلف الهنداوي.. يوأني ملكة اور وضحيتها). وفي القسم الكردي موضوع عن الاشوريون في التاريخ.

وفي الختام وباللغة السريانية شخصية ثقافية (شخصية العدد هي عن القس شموئيل بيث كوليا).